نهاية المثقف؟

اللامنتمي في أيديولوجيا نهاية المثقف

أحمد برقاوي

تشهد الساحةُ الفكرية العربية ـ في هذه المرحلة ـ قيلاً كثيراً حول دور المثقف العربي في مواجهة مشكلات الواقع الراهن.

فمِنْ قائلٍ بأنّ دورَه قد ازداد بإخفاق السياسي، إلى قائلٍ بأنّ إخفاق السياسي ليس إلا صورةً لإخفاق المثقف الذي كان قد زوّد هذا السياسيَّ بالايديولوجيا. وعلى هامش هذا القيل برزتْ فكرةُ «نهاية المثقف».

ولسنا هنا بصدد الإجابة على سؤالٍ زائفٍ تماماً: «ما الدور الذي على المثقف أن يقوم به؟» ذلك أنّ المثقف/المفكر لا يَطلب من أحدٍ جوازَ سفرٍ كي يفكّر، بل إنّ حريته لا تُحشر إطلاقاً فيما يجب أن يكون عليه. وليس باستطاعة أحد أن يُجبره على الصمت.

ولهذا فإنّنا نسعى إلى نفض فكرة «نهاية المثقف» ـ الأثيرة الآن على البعض من الكَتَبة ـ لنرى الإمكانيات القابعةَ خلف هذه الفكرة.

*

في كل حضارة بشرية ـ وعلى امتداد التاريخ ـ هناك المفكر المبدع وإلى جانبه يقف المثقفُ المتوسّط الذكاء. وقد وصف كولن ولسن متوسِّطَ الذكاء هذا بـ «اللامنتمي»، أي أنه لا ينتمي إلى صنف المبدعين ولا إلى صنف العامة.

يبحث اللامنتمي دائماً عن موقعٍ له في عالم الثقافة. ولعمري إنّ أسهل الطرق لشغلِ موقعٍ كهذا هو التسلّق على جدار المبدع. وهو تسلق يتم بدواعي النّقد. وحين يتميز العالم بحيوية فائقة، فإنّ اللامنتمي سرعان ما يسقط. أما حين يفقد العالم حيويته، فإنّ فرصة اللامنتمي في الظهور تكون أكبر.

وفي عالمنا العربي الراهن الذي يعاني ركوداً تاريخياً، وجد اللامنتمي فرصته في فكرةٍ استعارها من الفكر الغربي المعاصر، وهي فكرة «نهاية المثقف».

تستند الدعاوى الظاهرة للامنتمي ـ الناقد المتوسط الذكاء ـ إلى واقعةِ إخفاق الإيديولوجيات الشمولية الكبرى، أي الايديولوجياتِ التي تَعِدُ بعالَمٍ آخر متجاوزٍ للعالم المعيش.

والمفكر العربي ـ بسبب من علاقته الصحيحة بالواقع وبما يجب أن يكون ـ صاغ على أنحاء مختلفة خطاباتِ التقدم التاريخي. فأخذ صيغة المفكر الرسولي أو الداعية أو الأيديولوجي.

ولكنّ التاريخ بدَّد ـ حتى الآن ـ طموحَ المفكر. فالتقط العقلُ المتوسطُ هذه الواقعة وطبّق عليها الفكرة التي استعارها ـ أي فكرة «نهاية المثقف» ـ ليعلن نهاية المفكر الرسولي.

والحق أنّه في حقل الثقافة الأوربية تعلَن النهاياتُ في عالم جديد من الصعب الإمساكُ به حتى هذه اللحظة. فالعالم القديم الذي قام على فكرة التقدم التاريخي الأوروبي وصل إلى ذروة تقدمه. فكان السؤال: وماذا بعد؟

وقبل إجابة الأوروبي على هذا السؤال راح يعلن النهايات: نهاية التقدم، نهاية الايديولوجيا، نهاية التاريخ، نهاية الأوتوبيا، نهاية الإنسان أو موته، نهاية المثقف.

أجل لقد وصل التقدُم الأوروبيُّ إلى ذروة الحداثة، حيث انتصرت العقلانيةُ في الحياة، وغدت الديموقراطيةُ نمطَ وجود، وصار المجتمعُ مجتمعَ رفاه. ولم يعد أمام المفكر ما يعد به الناس الآن سوى الهجوم على الحداثة، وإعلانِ ما بعدها، وموتِ المفكر «المثقف».

ويأتي العقل المتوسط ـ اللامنتمي فيستعير هذه الفكرةَ دون أن تكون نتيجةً ضرورية لواقع متعين.

*

تكمن سعادةُ مثقف «نهاية المثقف» في عناد التاريخ الذي حال بين جهد المفكر وبين رؤية أهدافه في الواقع.

فالمفكر الرسولي الذي وَعَدَ بجنة أرضية، وصاغ العالم كما يجب أن يكون، قد «فشل». والمفكر الرسولي الذي اتَّبَعَ الايديولوجيات الكبرى لم يعد أمامه من خيار إلا التوقف نقدياً أمام ماضيه. وفكرة الثورة التي آمن بها تبدو الآن طوباوية. إذاً آن الأوان لأن يغدو المفكرُ القومي والماركسيُّ والديموقراطيُّ دريئةً يُطلق عليها «مثقفُ نهاية المثقف» الرصاص.

كيف لا، والفرصةُ سانحة لذلك؟! فلا الوحدة القومية تحققتْ، ولا تحريرُ فلسطين تمّ، ولا التفاوتُ الطبقي زال، ولا التجربةُ الاشتراكية وجدت سبيلها إلى الحياة، ولا الديموقراطية غدت نمط وجود.

إذن، آن لهذا المفكر أن يموت وتموت معه فكرةُ الوحدة والتحرير والاشتراكية والديموقراطية. هذا ما أراد قولَهُ العقلُ

المتوسِّط.

فإلى النقد إذن: نقدٍ يطول كلَّ ما أنتجه المفكِّرُ. وإذا بالبديل عن المثقف الملتزم والمبدع، مثقفُ الإخفاق والعقل المتوسِّط!

إنّ مثقف الإخفاق المطلق يعتقد واهماً أنّه بديل الإخفاق. ولكنه في حقيقة الأمر الصورة الأبرزُ لمأساة الواقع، والشكلُ الأمثل للنعيق في الخراب.

وبكلمة أخرى، فإنّ العقل المتوسط حين رأى أنّ الأجنحة قد احترقت، اعتقد أنّ البديل هو الخفّاش الذي لا يجيد الطيران إلا في الظلام. فراح يصرخ قائلاً: [هذا] العالم لا بديل له، وكل فكر يَعِدُ الناسَ فكرٌ ينتمي إلى وهم الايديولوجيا، ولا مكان «للشعار» في عالمنا الذي استسلم لقدره.

ولأن اللامنتمي لا علاقة له بالواقع ـ إذْ ليس بمقدوره أن يمتلكه نظرياً ـ فإنّه لم يجد أمامه إلا النص. لقد تحوّل العالمُ لديه إلى نص؛ وما عليه سوى نقد النص أو تفكيكه عبر حرية القراءة. وما النص الذي ينقده إلاّ نصُّ المفكر.

وإذ أعلن اللامنتمي أنْ لا مهمّة للمثقف سوى قراءة النص وتفكيكه، أعفى نفسَه من فكرة الالتزام بمشكلات الناس وآمالهم.

لكنّ اللامنتمي يقع في تناقض لا سبيل إلى حلّه. فما دام لا يفكّر في الواقع لأن هذا غائبٌ أصلاً عن ساحة وعيه، وما دامت مهمته الوحيدة هي نقد النصوص، فإنّه في حاجة دائماً إلى نص قابلٍ للنقد. فوجوده، إذن، مرتبط أصلاً بوجود المفكر، لأنه يحتاج دائماً إلى مبدعٍ لنص حول الواقع. وهو، إذ يعلن نهاية «المثقف»، يعلن ـ دون أنْ يدري ـ نهايته هو بالذات، إذ لا يمكنه في حال موت المثقف/المفكر أن يتطفل متسلقاً واجداً مكانةً ما في عالم الثقافة!

*

لا شك أنّ الشروط الراهنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية قد هيأت المناخَ لبروز اللامنتمي. فالدولة/السلطة أحكمتْ قبضتها على المجتمع، خالقةً أدواتِ كبحٍ شديدةً تقف أمام فاعلية البشر وحريتهم في تقرير مصيرهم. وعملية الإفقار تتزايد، مودية بالملايين في عالم البؤس والتشاؤم من المستقبل. والإعلامُ الرسمي للسلطة يبذل كلَّ مستطاع لتأكيد الواقع. وتخلق السلطةُ جهازاً ايديولوجياً قطْريّاً للدفاع عن شرعية التجزئة. وأيديولوجيا التسوية يتسع نطاقُ تأثيرها، ورموزُها يعلنون شرعيّتها صراحةً.

وهكذا يغدو اللامنتمي في بروزه التعبيرَ الثقافيَّ ـ الايديولوجي عن السلطة الاستبدادية ومنتجاتها وهشاشتها.

والمدقِّق في المفاهيم التي تتعرض للهجوم من قبل مؤدلج «نهاية المثقف» يدرك طبيعته الاستبدادية. فالأمة، والحرية، والعدالة، والتحرير، والديموقراطية، والعدالة ـ وهي مفاهيم الفكر العربي ـ تتعرض لنقد عبر مفاهيم لا يحمل دلالاتها الحقيقية ـ كمفهوم: العولمة، الواقعية، العقلانية، النقد، التفكيك، القراءة... الخ.

أي تتراجع جملةُ المشكلات الحقيقية التي تثقل كاهل البشر أمام مشكلات زائفة، ويُنحى باللائمة على الأفكار، وتُنزَع المسؤوليةُ عن أولئك الذين أودوا بالوطن إلى هذه الحال. فلا يطول النقدُ العالَمَ لفهمه وتغييره، بل ينحصر في نقد نصوص نقداً لا علاقة له بمرجعيتها التاريخية ووظيفتها العملية وتماسكها المنطقي وما تنطوي عليه من صحة معرفيّة.

نقد كهذا هو نقد ذاتي ضيّق، كضيق أفق العقل المتوسط ذاته. ومثقفُ «نهاية المثقف» لا يسأل عن الإمكانيات التي يختزنها الواقعُ في أحشائه، بل لا يخطر على باله البحثُ عن شروط تغيير العالم، فيتحول ـ سواء درى ذلك أم لم يدره ـ إلى مثقف الأمر الواقع.

المثقف الذي يدّعي «نهاية المثقف» ليس البديل، بل هو الشكل الأمثل للنّعيق في الخراب

وقد يقال: إنّ صاحب دعوة نهاية المثقف العربي لا يقول بنهاية دور المثقف بعامةٍ، وإنما بنهاية صنفٍ محدد من المثقفين، صنفِ أصحاب المشاريع الكبرى أو المدافعين عنها، أي صنف الايديولوجيين والطوباويين. وقد يقال إنه يدعو إلى المثقف العالِم: عالِم الاجتماع وعالِم النفس وعالِم التاريخ الخ... أي إلى المثقف المتحرر من فكرة «العالَم كما يجب أن يكون»، بحجة أن كل منظومة شمولية لا بدّ وأن تؤدي إلى نظام شمولي. وقد يقال إنّ صاحب الايديولوجيا شخص مغلق لا يعترف بالآخر، لأنه يعتقد بالحقيقة المطلقة. وقد يقال إن مثقف «نهاية المثقف» يرفض إعادة إنتاج هذا الصنف تحديداً من «الايديولوجيين».

لسنا نختلف مع أولئك الذين يرون أنّ المرحلة لم تعد مرحلة مشاريع كبرى شمولية. ولكنْ من ذا الذي باستطاعته أن يصادر حقَّ المفكر ـ مفكرِ أمةٍ مجزأةٍ متخلفةٍ تابعةٍ تتعرض لكل أنواع الاستبداد ـ في أن يقدم مشروعاً يتجاوز واقع الحال؟

وإنما نقصد بالمشروع تلك الرؤية النافذة للإمكانيات القابعة في قلب المجتمع والفئات القادرة على نقل هذه الإمكانيات إلى واقع.

إذا كانت مثل هذه الوظيفة هي وظيفة أيديولوجية يقوم بها المفكر العربي، فهذا يعني أنْ لا سبيل إطلاقاً للتحرر من الايديولوجي.

بل قل إنّ تاريخ البشرية لم يشهد، ولن يشهد إطلاقاً، تحرُّرَ المجتمع من الايديولوجي. ذلك أنّ أهداف البشر تتجدد دائماً

وتبحث عن سبل تحققها، سواء أكان البشر فرداً أم جماعة أم طبقة أم أمة أم إنسانية. إن أفكاراً كالعدالة والمساواة والحرية والتحرر والكرامة ليست اختراعاً ذاتياً لفيلسوف يعيش خارج العالم، بل هي مواجهة للشروط والقوى السالبة لما يطمح إليه الإنسان. وانتقال هذه المفاهيم من مجرد مفاهيم أخلاقية إلى هموم سياسية واقعية ما كان ممكناً إلا بفهم آلية غيابها.

وتتضاعف حاجة العربي إلى الايديولوجي لأن جُلّ أهدافه المعاصرة لم تتحقق. وبالتالي فإنّ المطالبة بمثقف تقني مطالبةٌ بالكفّ عن الاندراج في هموم ملايين الناس الطامحين إلى حريتهم.

إني أدافع عن الايديولوجيا، ولن أعلن نهايتي أبداً، لأنه لا سبيل لي إطلاقاً بالانسحاب من الحياة وتعقدها. لا سبيل لي إطلاقاً بالانسحاب من طموح الإنسان المضطهد، وإلا تحوّلتُ إلى كائن ذاتي يبحث عن راحة مؤقتة، وغدوتُ جزءاً من جهاز الدولة ـ السلطة.

بل وفي لحظة عدم اكتشاف أية فئة قادرة على تغيير التاريخ سأغدو طوباوياً. أجل! سأطرح الأوتوبيا حتى تظل آمال البشر حاضرة.

وما الأوتوبيا في هذه الحال إلا الاحتجاج على العالم، والتمرد عليه، حتى ولو لم يُثمر ذلك الاحتجاجُ وهذا التمردُ أي واقعٍ جديد الآن!

*

ثم لنسأل: أيّ مفهوم من المفاهيم الاقتصادية والسياسية والثقافية خالٍ من الايديولوجيا؟

فمثقف العولمة، الفرح بنهاية الأمة، إنما يخفي نزوع التحصن ضمن قطرية زائفة. ومثقف الخصوصية يُنْكر الهوية الواسعة، لقاءَ هوية ضيّقة تحفظ مصالحه الآنية. ومثقف ما بعد الحداثة العربي يتناول وهماً. ومثقف النفي للصراع الطبقي يسعى نحو تأكيد سلطة الطبقة.

إذن، الصراع الايديولوجي هو الصورة الأساسية التي تعكس نزوعات البشر وأهدافهم. وبالتالي لا سبيل إطلاقاً لنفي الواقع وتناقضاته. وقد يُظن أنّ مثقف «نهاية المثقف»، فيما هو ينفي الطابع الايديولوجي للأفكار، إنما يدافع عن حق الاختلاف. لكنّ حقل الاختلاف إذا كان هو حقل الحقيقة، فإنّ الحقيقة لا يمكنها إلا أن تلبس لبوساً أيديولوجياً ولاسيما في حقل الفكر الاجتماعي ـ السياسي.

ثم إنّ فكرة «نهاية المثقف»، كما طُرحتْ في الغرب، إنما أريد منها أن تعبّر عن واقع وظيفة المثقف دون حكم قيمةٍ على الأفكار. في حين أنّ مثقف «نهاية المثقف العربي» سعى جاهداً إلى أن يُعلنَ رفضه لوظيفة المثقف بوصفها امتلاكاً نظرياً وأيديولوجياً للعالم، وراح يسفّه الأفكار بطريقة استبدادية تنفي حقّ الاختلاف.

مفكر الاختلاف في أوروبا أراد تجاوز مفهوم الهوية والسويّ، مدافعاً عن التعدد واللاسويّ، وهو يعيش الاختلاف على مستوى الفكر والسياسة. في حين أنّ مفكر الاختلاف العربي راح يدافع عن الهوية والسويّ كما يراهما، «داحضاً» الطابع الشموليّ للمفكر وللايديولوجيا دون أن يقدّم لنا لوحة الفكر المختلف.

فإنْ تعرّض للفكر القومي رآه جسداً واحداً. وإنْ تناول الفكر الماركسي تجاهَلَ التنوُّعَ الهائلَ فيه. كل ذلك من أجل أن يدلل على «نهاية المثقف». وإذّاك كان لا بد من تجاهل الواقع ونقدِ ما لا وجود له واقعياً.

من يستطيع أن يصادر حقَّ المفكّر، في أمّةٍ متخلفةٍ، في أن يقدِّم مشروعاً يتجاوز واقعَ الحال؟

يطرح المثقف ـ المفكر القومي ضرورة إيجاد معادل سياسي لأمة مجزأة. ويأتيه الجوابُ من قِبل مثقف ما بعد الحداثة: الأمة ظاهرة قديمة تجاوزها التاريخ. وهذا يعني أنه يريد أن يتجاوز ما لم يتحقق بعد!

يطالِب المفكرُ الوطني بضرورة فك التبعية، ويأتيه الجواب من «المثقف الجديد»: العالم صار قرية كونية، ولا سبيل أمام أيّة أمة للاستقلال؛ مفنّداً على نحو فجّ فكرة الاستقلال قبل تحققها!

ولكنّ نقد الأمة ونقد الاستقلال، ألا يمهدان السبيل أمام طرح فكرة المصالحة مع العدو القومي امتثالاً لروح العصر؟

وهكذا تتفتق كلّ الإمكانيات السلبية التي ينطوي عليها الطرحُ الأثيرُ لدى اللامنتمي ـ «نهاية المثقف» ـ ودون أن يعي تماماً مآل أيديولوجيته المستترة.

والسمة الأساسية لأيديولوجيته المستترة هي العدمية الزائفة تجاه المجتمع والتاريخ والفكر. وتبرز هذه العدمية أكثر ما تبرز في عدم رؤية أية فكرة ذات علاقة بالحقيقة والواقع في الخطاب العربي. فإذا بجهد مائة عامٍ من التفكير والكتابة ليس إلا سدى.

ترى هل يعقل أنّ أمة تفكر بعالمها ومصيرها على امتداد هذه السنين لم تُنجب إلا أوهاماً فكرية؟

أصحيح أنّ الفكر العربي خواء مطلق؟

إنّه لنقد صبياني هذا الذي ينطلق من النعي العدمي للتجربة التاريخية، ويصادر مباشرةً على مفهوم التراكم التاريخي والأنكى من ذلك أنه عدمية بلا بديل إطلاقاً. وإني لأتساءل هل البديل عن المفكر الملتزم هو مثقف إعلان موت الأمل؟

وهل تتحمل أمةٌ ما زالت تنظر إلى مستقبلها على أنه أمامها، بروزَ مثقف كهذا؟

دمشق